

أثر الإيمان في طمأنينة النفس السيد فاضل الجابري



أثر الإيمان في طمأنينة النفس السيد فاضل الجابري

قال الله تعالى: (إِنَّهُمْ لَمُؤْمِنُونَ فَمَا يُسَمِّوْنَ رَبَّهُمْ بِرَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). (سورة البقرة: 177)

1- إنَّ التحقيق في تاريخ التقدم البشري يثبت لنا أنَّ أركان حضارة الإنسان و ثقافته كانت و لا تزال على عاتق من كان «إيمانهم» يهون عليهم تحمُّل الأحمال الثقيل من الآلام و المشاكل، فهم قد أحبطوا بإيمانهم آثار المصائب و الآلام في قلوبهم القويَّة المقتدرة.

2- يعترف علماء النفس بصورة عامة أنَّ «للإيمان» ثمارا عجيبة و غير اعتيادية في علاج الآلام الروحية و لإيجاد الطمأنينة و الراحة الباطنية.

حينما تحطُّم المشاكل المنهكة شخصية الإنسان، و تسلبه الإرادة و الأمل، فإنَّ الإيمان و التوكُّل على الله يمنح روحه المنهزمة أثرا كبيرا لا ينكر ((إِنَّ السَّادِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

إنَّ خيبة الآمال و المشاكل و الانتكاسات لا تقدر أن تثير في ضمير الرجال الربانيين أية إثارة، و لا أن تصيبهم بالضعف و اليأس و انعدام الشخصية. قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُذْذَبُوا بِإِيمَانِهِمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ [الفتح: 4]

3- كتب عالم النفس المعاصر (يونك) يقول:

«لم نكن نجد بين المصابين بالأمراض النفسية من أصحاب الأعمار 35 عاما و الأكثر، حتى شخصا واحدا لم تكن ترجع مشكلته النفسية إلى عوز في الإيمان الديني. و الأفضل أن نقول: إنَّ كل واحد منهم كان مريضا بعلة انعدام معطيات الدين فيه، و لم يعالج و لم يشف أيَّ واحد منهم من دون استعادته لإيمانه الديني» .

إنَّ الإيمان بالله نافذة أمان لإيجاد التوازن في الأهواء النفسية التي هي منشأ لكثير من الاضطرابات النفسية، و بالإيمان بالله تتكامل صورة الحياة، فإنَّ الإنسان حينما يعتقد أنَّ الحياة لا تنتهي بانتهاء هذه الدنيا سيحدث ذلك في نفسه طمأنينة خاصة، و سيخطو في حياته بصورة معتدلة نسيبًا.

4- و بالإيمان بالله و تنفيذ القواعد الدينية الأخلاقية سيتَّزن فيه حبُّ التكاثر، و اكتناز الأموال، و الذي هو من عوامل اضطراب الخواطر النفسية، فإنَّ الإنسان بتأميله الثواب العظيم و خوفه من العقاب الشديد يحذر من أن يهجم هجمة همجية و بلا رويَّة و بصورة غير معقولة و لا مشروعة و بلا حساب على تحصيل المال و الثروة و زينة الحياة الدنيا، و بالتالي فإنَّه سيتواجد فيه توازن و تعادل يتناسب و مقامه الإنساني . قال تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) .

5- كذلك الاعتقاد بيوم المعاد و الحياة بعد الموت يخفف عن كاهل الإنسان ثقل تصور العدم و الفناء المطلق. إذ هو يعتقد أنَّه بالموت ستنتفتح عليه أبواب عالم آخر، و من ذلك سيصل إلى الحياة الأبدية و النعم الخالدة ممَّا لا يمكن قياسه بلذاذ هذا العالم. و من خلال ذلك سينعدم عامل آخر من عوامل الاضطراب هو خوف الفناء .

6- إنَّ الإيمان لا يرفع الآلام و القلق عن قلب الإنسان فحسب، بل بإمكانه أن يمنع من هجوم القلق و الاضطراب على القلوب فلا تصل إليها. و القرآن الكريم يشير إلى هذه الوقاية الإيمانية فيقول: (وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْزَلْنَا الْأَعْلَاقَ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) .

في هذه الآية ذكر الله تعالى أنَّ الإيمان يوجد درعا متينا لروح الإنسان أمام عوامل الآلام النفسية، و كذلك تحدث في الإنسان حصانة خاصة ضدَّها .

7- إنَّ الإنسان حتى لو لم يكن يتَّصف بإيمان كامل و لذلك فقد عشعت عوامل الآلام في باطن نفسه، مع ذلك فلا شيء سوى الإيمان الذي باستناده يمكن أن تتحرَّر الخواطر من ثقل الهموم و الغموم و أن تزول آثار الآلام عن ضمير القلوب، و القرآن الكريم يقول: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

الْقُلُوبِ) . و (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) و
(الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ) و (أَلَا
إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

و يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) ضمن خطبة في ذكر ثمار ذكر الله و أوصاف الرجال الربانيين:
«إنَّ الله تعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، و تبصر به بعد العشوة، و تنقاد به
بعد المعاندة. و ما برح الله - عزَّتْ آلاؤه - في البرهة بعد البرهة، و في أزمان الفترات رجال ناداهم
في فكرهم، و كلامهم في ذات عقولهم» .

8- لا يمكننا أن نقارن أو نقيس حال المؤمنين بالماديين غير المتدينيين في مواجهتهم للحوادث
المرّة في الحياة، فإنَّ الاختلاف بينهما كاختلاف الأرض عن السماء!.

قال تعالى : (وَ لَنَذِيبَنَّكَ مِنَ الْخَوَافِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْمِ مَنْ
الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشَّرَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُ

مُ مٌ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

كتب مؤرّخو السيرة: إنَّ إحدى النساء المسلمات في المدينة بلغها الخبر: أنّها قد فقدت في جبهة حرب
«أحد» ثلاثة من أعزّائها. فتوجّهت نحو أحد و معها جمل كي تحمل عليه أجساد أعزّائها الشهداء، و
حملت أجساد أعزّائها المضرّجة بدمائها على البعير و رجعت بهم نحو المدينة. و في أثناء الطريق
تلاقت معها عائشة زوج النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) «كانت قد خرجت في نسوة تستروح الخبر-
و لم يضرب الحجاب يومئذ- لقيتها و هي هابطة من بني حارثة إلى الوادي بمنقطع الحرّة، فقالت عائشة،
عندك الخبر، فما وراءك؟

فقال هند بنت عمرو بن حزام: خيرا، أما رسول الله فصالح، و كلّ مصيبة بعده جليل» أي صغير .

فأيّ عامل هذا سوى الإيمان بإمكانه أن يمنح روح هذه المصابة هكذا طمأنينة و سكون؟!.

يقول (جان جاك روسو):

«إنّنا لو كنّا من الموجودات الخالدة التي لا تفنى لكنّا أشقياء جدّا؛ و لا شك أنّ الموت أمر مشكل
و صعب، إلا أنّ الأمل بأنّنا لا نعيش هكذا دائما و أنّ هناك حياة أفضل تختم على آلامنا في هذه
الحياة، أمل يمنح النفس الطمأنينة و السكون. و لو كانوا يهدون إلينا الخلود في الأرض هدية فمن ذا
الذي كان يتقبّل هذه الهدية الأليمة! و عندئذ فأيّ أمل كان يبقى لنا في مصيرنا أمام ظلم الآخرين؟!.
إنّ الجاهل الذي لا يتنبأ بشيء للمستقبل لا يعرف قيمة الحياة جيدا، و لا يخاف من فواتها. أمّا
الإنسان المثقّف فإنّّه يفضل الحياة بعد الموت على هذه الحياة الأرضية، نعم إنّما الأفراد ذوو العقل
السطحي و الساذج و المعرفة الناقصة الذين لا يرون إلا هذه الحياة الدنيا، و يرون أنّ الموت أكبر

مصائب الإنسان .

أمّا العاقل- كل العاقل- فإنّنه يرى أنّ ضرورة الموت هي التي تهوّن عليه تحمّل آلام الحياة . قال تعالى : (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) .

9- التسليم لأمر الله و الرضا بقضاء الله □

إنّ من لا رصيد له من الإيمان سينهزم أمام عوامل الطبيعة غير المؤاتية و الملائمة له، فإنّنه يرى نفسه أسيرا بيد الطبيعة و محكوما لقواها القهّارة و الظالمة، و هو حتى لو لم ينهزم في أول مواجهة للمصائب و المشاكل، فإنّنه سيغرق بالتالي عند هجوم أمواج حوادث الحياة .

أمّا الذي يستند إلى منطق الدين فإنّنه لا يرى أيّ مؤثّر في نظام الخلقة سوى إرادة الله تعالى، و يعتقد أنّ آلام الحياة الخارجة عن حدود اختياره إنّما قدّرت له من قبل الرّب الرحيم لتطهير قلبه و تهذيب روحه، و لهذا فإنّنه لا يسمح للمشاكل و المصائب أن تحبط قواه الروحية، بل إنّنه يحتفظ بتوازنه في كل حال، و يصل بسفينة نفسه في كل حادثة إلى ساحل السعادة و الطمأنينة و الموفّقية بالاستعانة من قوى الله العلي العظيم، بل إنّنه تزداد لذّاته الروحية مع تزايد آلامه .

حينما مرض (جابر بن عبد الله الأنصاري) و هو أحد الشخصيات المتربّية في مدرسة الإسلام، جاء الإمام الباقر (عليه السلام) لعيادته إلى بيته، و سأله عن حاله .

فقال له جابر: أصبحت أرى الهرم خيرا من الشباب و السقم خيرا من السلامة، و الموت خيرا من الحياة! . فقال له الإمام (عليه السلام): و لكنّنا آل رسول الله لسنا كذلك، فما ارتضاه الله لنا من السقم أو السلامة و الشباب أو الهرم، و الموت أو الحياة، قبلناه و صبرنا على مصائب الحياة» .

10- و يقول (برتراند راسل):

«إنّ لحالة التسليم و الرضا أثرا في تحقق السعادة، ليس بأقلّ من أهمية السعي و العمل لذلك، إنّ العاقل في حين لا يبقى عاطلا أمام الحوادث المرة الممكنة التغيير، لا يتلف عمره بالفكرة في التعاسة و الشقاء الذي لا بدّ منه، بل حتى في الأمور غير المرغوب فيها الممكنة التغيير، إذا كان ما يقتضيه دفعها من الوقت و الجهد يعوقه عن الهدف الأسمى استسلم للأمر الواقع) .

يقول العالم الإنجليزي (أويبوري):

«إنّ الإيمان الدينيّ في أيام التعاسة و الشقاء أفضل ما نتوسل به لتسليّة أنفسنا و لتخفيف ضغط المصائب عنها. إنّ الخلود في هذه الحياة الدنيا قليل للإنسان، و إنّ وراء هذا الخلود خلود أبديّ آخر، و الدين يريد أن يحدّث روح الإنسان عن تلك الأبدية و يقنعه بها .

من المسلمّ به أنّ الدّين مفيد جدّا لإطمئنان القلوب و لراحة الخواطر

النفسانية، أكثر ممّا نتصوّره بكثير؛ فإنّ الأفكار الدينية بما لها من جمال و طرافة تحرّرتنا من قيود الحياة الاعتيادية فتخرج بنا من هذا العالم الأرضيّ إلى عالم أعلى و أوسع و أجلى و أطيب

للقلوب.

11- إنَّ الدين لا يقول لنا بأنَّ لا نعتني بحياتنا الدنيا بل إنَّما يقول: لنكن في حياتنا شرفاء عفيفين و قورين، لا نترك أزمّة نفوسنا لأهوائنا، و لا نحرق أرواحنا بنار الحرص و الطمع، و لا بنار الظلم في بيدر آمال الآخرين.

إنَّ الدين ي

ريد أن يحدِّ حبِّنا لأنفسنا و الذي لا يزال يتعالى و يطغى كشيطان مهول، يحدِّه لئلا يذهب أبعد من ذلك فيتلاعب بكيان الآخرين. إنَّ الدين يقول لنا: لنقض أعمارنا شرفاء فاضلين، و أن نجعل التقوى فائدا متبَّعين، لتسكن أرواحنا و ترتاح ضمائرنا و نروى من ينابيع السعادة الأبدية. إنَّ الحياة مليئة بالحوادث، و ما يسترعي انتباهنا نحوه متغيِّر بدوره، و لعلاه يفنى في طيِّ الحوادث، و حينئذ تحيط بأرواحنا ظلمات مهولة فنحسُّ بأننا قد سئمنا من الحياة، فلا خوف فينا و لا أمل، و لا حبُّ بنا و لا بغض. و هذه الأزمة الغريبة لو أضيف إليها ضعف النفس أدَّت إلى الإنتحار. يقول (ماركوس):

«إنَّ صح القول بالمبدأ و المعاد فما أحلى الموت، و إَّلا فما أمرُّ طعم الحياة».

12- و أحيانا ترتفع الأفكار الدينية بنا إلى أسمى حدود حياتنا المادية فتطير بنا في بطون السموات. حرِّروا أفكاركم من قيود الحياة و فكِّروا في أسرار الأبدية و الحياة و الموت و دقائق الكائنات، فبهذه الطريقة فقط نتمكن من أن نتحرَّر من اضطرابات الحياة، و ذلك بأن نجعل أوهام الطفولة تحت أقدامنا و نرتقي عليها، و نبحث في عالم الأفكار و التصورات عن الجمال و السرور و السعادة» .

السيد فاضل الموسوي الجابري / 13 شعبان 1439هـ / النجف الاشرف